مسؤولية الوالدين عن تربية الأولاد

الدكتور محمد الزحيلي

نقدم بين يدي هذا الموضوع فضل الله تعالى في منح الأولاد، وأنهم هبة من الله تعالى، كما أنهم أمانة في عنق الوالدين.

الأولاد هبة من الله تعالى:

إن من الآيات الجليلة الدالة على عظمة الله تعالى وقدرته أن خلق الناس من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، ثم منح الزوجين الأولاد والذرية، فقال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء). [النساء: 1].

وإن منح الذرية من الأبناء والبنات نعمة جلى من الله تعالى، يستحق عليها الشكر الجزيل، والثناء الدائم، لأن الذرية أمل البشرية منذ وُجدت، وستبقى كذلك حتى تقوم الساعة، للمحافظة على بقاء الجنس البشري، وإن الأزواج يتطلعون – بسرعة عقب الزواج – إلى الذرية الطيبة، ويرقبون العلامات الدالة على الإنجاب، ويستبشرون بها، حتى يحققوا رغبتهم، وتقرأ أعينهم بالبنين والبنات، ويسألون الله تعالى ذلك، فإن تأخرت قرائن الحمل استغاثوا الله الخالق البارئ، واستنجدوا به، وضربوا في مشارق الأرض ومغاربه لاتخاذ الأسباب للإنجاب، وهذه سنة الله في الناس، وهذه هي فطرتهم مهما اختلف أجناسهم وألوانهم وأزمانهم وأماكنهم، قال تعالى على لسان سيدنا زكريا: (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء). [آل عمران: 38].

وقال تعالى على لسان أيضاً زكريا أيضاً: (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً). [مريم: 5 – 6].

وإن هبة الأولاد من الله تعالى نص عليها القرآن الكريم، وربطها بملك السموات والأرض، والتصرف فيهما كما يشاءُ فقال تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) [الشورى: 49 – 50].

وقد وردت الآيات الكثيرة التي تؤكد نعمة الله تعالى على البشرية بالذرية الصالحة الطيبة، فقال عزّ وجل: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً). [الكهف: 46].

وقال تعالى: (وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ). [النحل: 72].

وهذه النعمة ذات أثر عظيم على الإنسان، وتلتقي مع فطرته وغريزته، فإذا بشر الناس بالمولود تلألأت وجوههم بالبشر والفرح والسرور، وامتلأت قلوبهم بالسعادة والحبور، وانتظروا من الأهل والأصدقاء والجيران التهنئة به، لأن مولود اليوم هو رجل المستقبل، وأمل الوالدين، وذخر الأمة، والطفل امتداد لحياة الإنسان على الأرض، وهو فرع من شجرته، وثمرة من غراسه، ولا يتمنى أحد أن يكون غيره أحسن منه إلاَّ أن يكون ولده.

الأولاد أمانة في عنق الوالدين:

وعند الوصول إلى هذا الأمل تهدأ النفوس، وترتاح القلوب، وتتعلق المهج بالمولود الجديد الذي خلقه الله تعالى، ومنحه للوالدين كرماً وفضلاً، ولم يكن لهما حَوْل ولا طَوْل في خلقه وإيجاده، فهو أمانة في أيديهم، ويحتمل أن يسترد صاحب الأمانة وديعته، أو أن يترك الولد بين أهله فترة – طالت أو قصرت – ليرعوا حق الله تعالى فيه، ويحافظوا عليه، ويطبقوا عليه شريعته وأحكامه، وهذا حق للولد على والده، وبعبارة أخرى فهي واجبات على الوالد، يجب عليه القيام بها، وإذا قوي ساقه، واشتد عوده، وجب عليه حسن التربية والتوجيه والتهذيب والتعليم، وهذا أهم واجب على الآباء والأمهات تجاه الأولاد، ولذلك يؤكد القرآن الكريم هذا الشأن عند الوالدين فيأمرهم برعاية الأولاد، ويوصيهم بالحفاظ عليهم، فيقول تعالى: (يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ). [النساء: 11].

تكليف الوالدين بواجب التربية:

يولد الطفل على الفطرة، ويفتح عينيه على الحياة ليرى أمه وأباه يحوطانه بكل شيء، وينظر إلى الوجود من خلالهما، ويبصر الكون بأعينهما، ويستقر في قرارة نفسه أن الأب والأم هما كل شي في العالم، فيستمد منهما العطف والحنان، ويتوجه إليهما للحماية والرعاية، ويلجأ إليهما في كل صغيرة وكبيرة، وتنساب أسئلته بالاستفسار كالسيل المدرار، حتى يعجز كثير من الآباء والأمهات عن الجواب، ويقنع الولد بكل جواب، ويُصدّق – بجزم وبدون ريب ولا شك ولا تردد، ولا تحفظ ولا

مناقشة – كل ما يسمع من والديه، مهما كانت الأفكار سخيفة أم رائعة كاذبة أم صادقة، ويكون عقل الطفل، في مرحلة الطفولة الأولى كالطين، يمكن للأب أن يشكلها كما يشاء، وتكون نفسه كالصفحة البيضاء، تخط فيها الأم ما تشاء، وتثبت عليها ما تريد، ويمتاز الطفل – في هذه المرحلة – بحب التقليد والمحاكاة لتحركات والديه وتصرفاتهما، لذا يتحمل الوالدان المسؤولية الأولى على التربية والإعداد والتثقيف والتوجيه لما يُحبّه الله ويرضاه، وقد خصهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه المسؤولية في الحديث السابق (والرجلُ راعٍ في أهله، هو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عن رعيتها) فالمسؤولية على الوالدين عظيمة، وتترتب عليهما نتائج خطيرة في الدنيا والآخرة، فيلتزم الوالدان أن يُنَشِّئا أولادهما على الإيمان الكامل، والعقيدة الصحيحة، وأن يعوداهما على التكاليف الشرعية والآداب الإسلامية، والأخلاق الفاضلة.

وإن إعداد الجيل المؤمن الصالح يقع على عاتق الآباء والأمهات، لأن الطفل ينظر إلى والديه، وكأنهما المثل الأعلى، ويلتف حولهما، ويطرح عليهما كل الأسئلة، ويعتقد أنهما يحوزان العِلْم اللدني، وأنهما كل شيء في الوجود، فهم الأنا الأعلى بالتعبير التربوي الحديث، ويتلقى الطفل منهما في بدء حياته كل توجيه، لقناعته الكاملة بكل ما يقولان، وتسيطر على أحاسيسه تعابير والديه، ولا يقتصر الأمر على التوجيه المباشر، بل يقلد والديه في الأشياء الكثيرة سواء كانت حسنة أم سيئة، بطريق مباشر أم غير مباشر، ويستحوذ على فكره اللاشعوري كثير من تصرفات الوالدين في الرضا والغضب، في الحب والكره، في السعادة والشقاوة، وإن هذه الظروف العامة المحيطة، والقناعات المطلقة، لا تتوفر في أية مرحلة أخرى من مراحل التربية، كما تتوفر للطفل في أسرته، ومع والديه، بالإضافة إلى الدوافع الفطرية بالمحبة المتبادلة، والتضحية اللامتناهية من الآباء والأمهات لأولادهم، وأنهم أمل المستقبل، وسبيل البقاء والاستمرار، لذلك كانت مسؤولية الوالدين في التربية أول المسؤوليات وأهمها أمام الله تعالى.

وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بوظيفة الوالدين في تربية الأولاد، فقال عليه الصلاة والسلام: (كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)، وخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الآباء والأمهات، ومن يقوم مقامهم في تطبيق الأحكام الشرعية المتعلقة بتربية الأولاد، فقال عليه الصلاة والسلام في مجال التربية البدنية مثلاً: (علِّموا أولادكم السباحة والرماية والمرأة الغزل) ورغّب رسول الله صلى الله عليه وسلم الوالدين بتأديب الأولاد، وأنهما يكسبان الأجر والثواب عند رب العالمين، فقال عليه الصلاة والسلام: (ما نَحلَ والدُ ولداً أفضل من أدب حسن)

وعن جابر بن سَمُرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لأن يُؤدَّب أحدكم ولده خيرُ له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا: يا رسول الله، قد علمنا ما حقُ الوالد، فما حق الولد قال: (أن تحسنَ أدبه).

وقال عبد الله بن عمر: (أدِّب ابنك، فإنك مسؤول عنه، ماذا أدّبته، وماذا علمته، وهو مسؤول عن بِرّك، وطواعيته لك).

فإن تخلى الآباء والأمهات عن ذلك فقد لحقهم إثم كبير، ووباء عريض، ونالوا خسارة جسيمة، وخانوا الأمانة التي وضعها الله في أيديهم، وأضاعوا الوديعة التي كلفهم الله بحفظها، وتحملوا مسؤولية ذلك في الدنيا والآخرة، لذلك حذّر القرآن الكريم الآباء والأمهات من ذلك، ونبههم إلى خطره، وأنهم مسؤولون عن أهلهم كمسؤوليتهم عن أنفسهم بترك المعاصي وفعل الطاعات، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ). [التحريم: 6].

قال الإمام علي كرم الله وجهه: "أي علموهم وأدبوهم".

وقال الحسن البصري: "مروهم بطاعة الله، وعلموهم الخير".

قال بعض أهل العلم: "إن الله سبحانه وتعالى يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده، فوصيةُ الله للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم".

وقال تعالى: (يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ). [النساء: 11].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اعدلُوا بين أولادكم في النِّحَل كما تُحبون أن يَعدلوا بينكم في البِر واللُطف).

آثار مسؤولية الوالدين في التربية:

وبناء على هذه النصوص الواضحة الصريحة في مسؤولية الوالدين ندرك الإثم العظيم الذي يرتكبه بعض الوالدين في هذا العمر، فإنهم يهملون تربية الأولاد، ويتركونهم يعبثون بالأخلاق، ويهدرون القيم، ويتخلقون بعادات الغرب وتقاليده، ويسارعون إلى اقتناص "الموضات" الأجنبية، ويتشكلون بأشكال الهمجية والوحشية والبدائية من إطالة الشعر، وإهمال النظافة، والارتماء على

الأرصفة، والاختلاط المشين في الحفلات والندوات، وإرواء الغرائز والشهوات بدون قيد ولا شرط، والتخنث والترجل، ويصدق عليهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتتبعنّ سَنَنَ الذين من

قبلكم، شبراً بشبر، وذرعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم)، قلنا: اليهود والنصارى ؟ قال: (فمن ؟!).

وقد يصل الأمر إلى الظهور بهذه الأشكال أمام الآباء والأمهات الذين يدعون الدين والتدين، ويتظاهرون بالإسلام، دون أن تتحرك عواطفهم بالاستنكار، أو تهتز أفئدتهم بالسخط، أو ينطق لسانهم بنصح أو وعظ أو إرشاد، وإن أنكر أحد الآباء على بعض ولده، ووجهه إلى الصواب فربما أعرض الولد، ولم يستجب، وما ذلك إلاَّ من التقصير في التربية على خلق الإسلام وسلوكه

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء إثماً أن يُضيِّع من يَقُوت)، فهذا الابن الذي رعاه أبوه صغيراً، وسهر عليه الليل والنهار، وكدّ وكافح في سبيله وسعى وكسب له القوت، وجمع له المال الحلال والحرام لتربيته وتنشئته، ليراه غرسة من بعده، أصلها ثابت وفرعها في السماء، ويأمل أن يكون ابنه ذِكْراً طيباً له، وامتداداً لحياته، إذ يخيب ظنه به، ويفقد رجاءه في سلوكه ويصبح الوالد في وادٍ فكري وديني واجتماعي، ويعيش الابن في وادٍ آخر، وتنقطع الصلة بينهما، فيصدق على هذا الابن.

وصفُ القرآن الكريم: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) [هود: 46].

ويعيش الآباء في صراع عنيف، بين الاعتزاز بالأبناء في تحقيق الآمال والأحلام، وبين الاستنكار في أعمالهم، وتكرر الصورة العجيبة التي يراها الإنسان في مجتمع اليوم، وهي من صور التناقضات التي عيشها المسلمون في ديارهم وأوطانهم، وهذه الصورة ذات وجهين:

الوجه الأول: أن ترى بعض الآباء والأمهات منغمسين في الحياة المادية، يغرقون في الملاهي والشهوات، ويستهينون بالقيم والمبادئ، ويجاهرون بالكفر والفسوق، بينما ترى أبناءهم وبناتهم على العكس تماماً: قد منَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان، وسلكوا طريق الهدى والرشاد، والتزموا الإسلام عقيدة وشريعة، فكراً وتطبيقاً، نظاماً وعملاً.

ومسؤولية هؤلاء الآباء والأمهات أمام الله تعالى واضحة لا لبس فيها، وخطرهم على المجتمع والأمة جسيم، فهم يمنعون الخير، ويأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، وينطبق عليهم قوله تعالى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى) [العلق: 9 – 10].

ولا تقل جريمة هؤلاء عن جريمة الكفار المعاندين الذين وقفوا في وجه الحق والدعوة إلى الله، ومنعوا الناس من الدخول في دين الله، والإيمان برسول الله، وحالُوا بين الضعاف وبين الهدى والنور، وينطبق على الأولاد دعاء الرسول ورجاؤه أن يخرج من أصلاب الآباء من يوحد الله ويعبده.

الوجه الثاني: وهو الأكثر شيوعاً، ويتمثل في تلك الغالبية من جيل الكهول، رجالاً ونساء، الذين يَتحَلّون بأكثر المظاهر الدينية، بينما ترى أبناءهم وبناتهم من جيل الأطفال والشباب، يتخلون عن كل شكل أو زِيّ، أو علامة أو مظهر، يَمُت إلى الإسلام بصلة، ويقلدون الأجانب في كل صغيرة وكبيرة، حتى يخيل إليك أن عربياً يسير بجانب أمريكي أو روسي، الأول تعلوه مهابة الإيمان، ويرتدي بزة الإسلام، ويحضر الجمعة والجماعات، والآخر ينسلخ عن تقاليد مجتمعه، ومبادئ شريعته، ليخلع على نفسه صورة الغربي، كما يخيل إليك أن امرأة مسلمة تسير بمحاذاة فتاة فرنسية أو انكليزية، الأم محتشمة اللباس، تغطي رأسها ويديها بالحجاب الشرعي، وتسدل الستار أحياناً على وجهها، والفتاة عارية الرأس، كاشحة الصدر، كاشفة للساقين، كأنها عارضة للأزياء.

هذه الصورة شائعة في المجتمعات التي تقطن أرض العروبة والإسلام، وهي صورة عجيبة في ملامحها، غريبة عن محيطها، متنافية مع المنطق والعقل، وهذا الأمر يرجع إلى مسؤولية الآباء والأمهات عن تربية أولادهم، ومسؤولية الأمة والمجتمع والدولة عن مناهج التعليم، ورعاية الجيل الناشئ، وإعداده إعداداً صالحاً، بتثبيت العقيدة، واعتناق الفكر الإسلامي الصحيح، لإزالة التناقض بين جيل الآباء والكهول، وجيل الأطفال والشباب، وإلاَّ كانت المسؤولية كاملة وثقيلة على الأعناق التي تنوء بها الظهور، وتشيب لها الولدان.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وتركه سُدَى، فقد أساء إليه غاية الإساءة وأكثرُ الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم يَنْفعوا آباءهم كباراً كما عاتب بعضهم ولده على العقوق، فقال الولد: يا أبتِ، إنك عققتني صغيراً فعققتمك كبيراً، وأضعتني وليداً، فأضعتك شيخاً".

منهج الإسلام في تربية الأولاد:

يزعم بعض الناس أنهم قاموا بواجباتهم تجاه أولادهم، ولم تتحقق غايتهم في التربية، ويقول آخرون – يدفعهم الحقد والنكران والجهود والكفر، ويسيطر عليهم الفكر الاستعماري، والغزو الأجنبي – يقولون باستحالة التربية الإسلامية في هذا العصر، ويتجاهلون التربية الإسلامية، ويتنكرون لمنهج

الإسلام في التربية، ويأتي فريق ثالث، يدفعه الإيمان والشعور بالمسؤولية، يأتي سائلاً عن الطريق التي يتبعها لتربية أولاده، والوسيلة التي تساعده في إنقاذ فلذات كبده، ويدور في خلد الجميع أحياناً أن علم التربية من العلوم المستحدثة، وأن مناهج التربية من مبتكرات الغرب في العصر الحديث !!

وقبل الجواب عن هذه الأسئلة نتوجه إلى المسلم فقط لنهمس في أذنه أمراً بدهياً يتعلق بالعقيدة، وهو أهم من معرفة الأحكام الشرعية، والمناهج التفصيلية، وهذا الأمر هو أن الإسلام دين الله الخالد، وأن القرآن الكريم كلام الله المعجز، وأن الأحكام الشرعية هي من وضع خالق البشر، الذي يعلم من خلق، وأن هذا الدين العظيم هو منهج كامل للحياة في مختلف النواحي، وأن المؤمن يتجه – عند كل واقعة – إلى كتاب ربه، وشريعة نبيه، يستقرئها، ويستوضح أحكامها، ويسأل أهل العلم عن الحل الأمثل، والدواء الشافي لكل صغيرة وكبيرة، قال الله تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً) [النساء: 65].

والإسلام الحنيف لم يطلب مجرد التربية من الآباء والأمهات، ولم يُحمِّلهم المسؤولية بدون أن يرشدهم إلى الوسيلة، ويأخذ بيدهم إلى أقوام الطرق، بل وضع لهم منهاجاً كاملاً في تربية الأولاد يبتدئ قبل الولادة، ويصاحب الولد في طفولته ومراهقته وبلوغه وشبابه، ثم يحدد العلاقة فيما بين الوالدين والولد بعد أن يصبح بالغاً ومكلفاً، ورجلاً كاملاً، وإنساناً عاقلاً، وشاباً سوياً، أو فتاة راشدة.

وإن ما يشغل المسلم الواعي، والمؤمن المخلص لدينه في وقتنا الحاضر، هو كيف يربي أولاده تربية إسلامية سليمة، وكيف يحفظهم من التيارات الفاسدة، والمبادئ الهدامة، والشعارات المستوردة، وكيف يصونهم من العبث والفوضى، وكيف يضمن تربية الأجيال القادمة، لتكون خير خلف لخير سلف، وتصون لأمتها الكرامة والسؤدد والعزة، وتحقق لها النصر والتحرير من الاستعمار والاستبداد والغزو الفكري ؟؟

والجواب السريع هو أن نستقرئ النصوص الشرعية ونتتبع الأحكام الدينية، لبيان أهم عناصر منهج الإسلام في تربية الأطفال، مع بيان الوسائل والغايات لكل عنصر، وهي:

حسن اختيار الزوجة: يقول علماء التربية: يجب على الوالد أن يبدأ بتربية ولده قبل الولادة، ويأتي في قمة العناصر التربوية التي أرشد إليها الإسلام – قبل الولادة – اختيار الزوجة، لأن خطيبة اليوم التي يبحث عنها الشاب هي زوجة الغد، وأم المستقبل، ومربية الأطفال والأجيال، والأم هي المدرسة

الأولى التي تحضن الطفل، لترضعه لبان الأدب والتربية، وترعاه في أول مراحل العمر، لتغرس في عقله وقلبه البذور الأولى التي ستنمو عند الكبر، وتصون فطرته عما يفسدها، مع ما تَهِب لوليدها من صفات موروثة، وطباع مفطورة، ومواهب متأصلة، فكان حسن اختيار الزوجة من أجل الأولاد أكثر أهمية من بقية العوامل التي تطلب المرأة لأجلها، ويرشد الرسول الكريم – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – إلى ذلك فيقول حكمته البالغة الموجزة (تَخَيّروا لنطفكم) ويقول عليه الصلاة والسلام: (فاظفر بذاتِ الدين تَرِبَتْ يداك) ويقول الشاعر العربي:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

فالأم هي المربية للأطفال، والحاضنة للأولاد والأمينة على الذرية، والمكلفة بالإشراف عليهم، لأنها سترضع الطفل اللبن، كما سترضعه العقيدة والأخلاق والقيم، وهي التي تربي العباقرة والمصلحين الذين يتولون دفة الحكم وسفينة الإصلاح وقيادة الجيوش، ورجال الدعوة والفكر، وبمقدار التوفيق من حسن اختيار الزوجة يكون الوالد قد أرسى حجر الأساس السليم في تربية أولاده قبل الولادة، مع ما شرعه الإسلام من أحكام خاصة بالحامل والمرضع، لرعاية الجنين والطفل الرضيع، فأباح للحامل والمرضع مثلاً الإفطار في رمضان، وجعل الرضاعة حقاً للطفل، كما شرع الحضانة حقاً للأم والطفل معاً.

وأن أول جهد في التربية، وأول دعامة لها هو التوجه إلى البيت، وخاصة إلى الزوجة الصالحة والأم المربية، والمرأة المؤمنة الواعية، وقد كان دوماً وراء كل عظيم امرأة عظيمة، أو أب عظيم أو أبوان عظيمان.

رعاية الوليد: ومتى تمت الولادة بدأت التربية منذ اللحظة الأولى من حياة الوليد، وهذا ما أرشد إليه الدين الحنيف، وتفرد به على سائر المناهج التربوية في العالم، وكلف الوالدين بإرساء الدعائم التربوية التي سيتم عليها بناء المستقبل، وهي آداب إسلامية، وسنن نبوية، ومنهج رباني، وأهم هذه الآداب ثلاثة:

الأدب الأول: الأذان والإقامة في أذني الوليد، ليكون أول شيء يسمعه في هذا الوجود هو توحيد الله تعالى الذي خلقه وأوجده من نطفة فعلقة فمضغة في ظلمات ثلاث، ليحقق خلافة الله في أرضه، ويبدأ بتنفيذ العهد الذي أخذه الله تعالى من بني آدم من ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا) [الأعراف: 172].

والأذان والإقامة يربطان الحياة – في الأفراح والأتراح – بالعقيدة والدين، ليبقى الأهل أيضاً في لحظات السعادة على صلة بالله تعالى، وتذكر له، ويقولوا: تبارك الله أحسنُ الخالقين، ربنا أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا وعلى والدينا، وأن نعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لنا في ذريتنا، وأنبنا إليك، وإنَّا من المسلمين.

الأدب الثاني: حسن اختيار الاسم، وهذا من مسؤولية الوالدين، لما ورد في الأحاديث الشريفة الكثيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة، ويزوجه إذا بلغ) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا: يا رسول الله، قد علمنا ما حق الوالد، فما حق الولد ؟ قال: (أن يُحسن اسمه ويُحسن أدبه)، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغير الأسماء القبيحة التي كانت في الجاهلية إلى أسماء حسنة، وإن اختيار الاسم الحسن علامة بارزة في التربية غير المباشرة، لأن كل شخص له من اسمه نصيب، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، بالإضافة إلى الأمور النفسية التي بينها علماء التربية عند المناداة باسم حسن أو قبيح، وأثر ذلك على نفسية الطفل، وعلاقته مع زملائه وأفراد مجتمعه.

الأدب الثالث: تكريم الطفل بالعقيقة لإعلان السعادة والفرح والبشر بمقدم الطفل، وتكون العقيقة بذبح شاة أو أكثر عن المولود يوم أسبوعه، لإطعام الأهل والأقارب والجيران بهذه المناسبة السعيدة، وتقديم الشكر لله تعالى على فضله ونعمه، وقال جمهور العلماء: العقيقة سُنّة.

رعاية الطفل من الصغر:

في مأكله ومشربه وجسده وثيابه، ليكون صحيح العقل، قوي الجسم، سليم الحواس، فإن حياة الإنسان كل لا يتجزأ، وإن حياته الجسمية في الصغر مؤشر إلى حالته في الكبر، وإن العقل السليم في الجسم السليم، والإسلام يريد منا أن نربي أولادنا على القوة والنشاط يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القويُ خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير) وهذه القوة تتجلى بالمعنى المادي، كما تتجلى بالمعنى الروحي أيضاً، بأن يكون الطعام طاهراً ومُبَرّأً من كل حرام، فلا يطعم الأولاد إلاَّ من حلال، ولا تتغذى الحامل والمرضع والأم الحاضن إلاَّ من حلال، لأن اللبن أو الغذاء الحاصل من حرام لا بركة فيه، وكيف يقدَّم الوالد إلى أولاده الغذاء الحرام، ثم يسعى إلى أن يكونوا على منهج الله وصراط رب العالمين؟ فإن الفاسد لا يؤدي إلاَّ إلى فساد، والحرام لا ينتج إلاَّ

سوءاً وضرراً، كما أن الحرام لا يكون وسيلة إلى المقاصد النبيلة، وكل لحم نبت من السحت فالنار أولى به، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيب لا يقبل إلا من طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً)، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثم ذكر الرجلُ يطيل السفر، أشعثَ أغبرَ، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يستجاب له).

ويظن كثير من الآباء أن واجبهم تجاه الأولاد مقصور على تقديم القوت والغذاء والكساء، وأن يؤمّنوا لهم العيش الرغيد، والحياة المادية المرْهَفة، فيقضي الأب الأيام والسنين منهمكاً

في الكسب، ويضرب في الأرض للتجارة والعمل، ويسعى ذات اليمين وذات الشمال، فيغيب عن بيته زمناً طويلاً، ويترك أولاده، ويغفل عن تربيتهم، ويظن أنهم صغار يكفيهم الطعام والشراب واللباس، فتكون النتيجة الضياع والحسرة.

وعلى العكس من ذلك تماماً فقد عمد الناس قديماً إلى وأد البنات، هرباً من رزقهم، وبخلاً على معيشتهم، وخشية من الفقر وضيق ذات اليد، ويعمد الناس اليوم إلى ما يُسمى بمنع النسل أو تنظيم النسل، خشية الإملاق والإنفاق، والخوف من قلة الرزق أو الخوف من الفقر، لذلك رد القرآن الكريم على هذين الصنفين رداً حاسماً، مبيناً أنَّ الله هو خالق الأولاد وهو رازقهم، وأن الله يرزق الأولاد كما يرزق الآباء والأمهات، وحذَّر القرآن الكريم من هذه الوساوس والأوهام، فقال تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً). [الإسراء: 31].

وقال تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) [الأنعام: 151].

كما أعلن القرآن الكريم المبدأ العام في الرزق فقال تعالى: (وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) [الذاريات: 32].

وربط القرآن الكريم بين الكسب والرزق ووجوب التربية، وإن انصراف الوالدين بعض الوقت إلى تربية الأولاد لا يؤثر على مورد رزقهم ولا يبطله، فقال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) [طه: 132].

فالآية الكريمة ربطت بين التربية وبين الرزق، وأن الرزق بيد الله تعالى، فلا يظن المؤمن أن تربية أولاده تشغله عن كسب الرزق، لأنه مقسوم محدد، ثم عقّبت الآية على كل ذلك بأن العاقبة في الدنيا

والآخرة هي للتقوى عن طريق الصلاة والتربية وليس من كثرة الأموال وجمع الأرزاق، وهذا يقودنا إلى أهمية التربية من الصغر.

البدء بالتربية والتوجيه من الصغر:

بأن يضع الوالدان الخطة الحكيمة، والمنهاج السديد لتربية الأولاد، وذلك بأن يبذل الأب من ماله ووقته على تربية ولده، كما ينفق من ماله وراحته على تأمين مأكله ومشربه وملبسه، فيعلمه الأدب الحسن، ويلقنه الإسلامي الفاضل، ويدربه على السلوك القويم.

والوسيلة التربوية لذلك أن يغرس الآباء والأمهات في نفوس الأولاد القيم الدينية، والعادات الإسلامية الصحيحة، وأن يؤدبوهم بآداب الإسلام، وأن يعلموهم أحكام الشريعة، وأن يُرَدِّدوا على مسامعهم محبة الله ورسوله، وأن يذكِّرهم باستمرار بفضل الله وآلائه، ورحمته ورعايته، وتصرفه في الكون والحياة والإنسان، وأن يميزوا لهم بين الحلال والحرام، وأن يلقنوهم بعض الأمور العامة، مثل ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم زماناً ومكاناً، واسم أبيه وأمه وجده وعمه ومرضعته، وأن يصحبهم الأب إلى المسجد، ويأخذ بيدهم إلى أماكن العبادة والحفلات الدينية، وأن يرشدهم إلى الخير وحفظ القرآن، وأن يحفظهم قسطاً من السُنّة والسيرة وأخبار الصحابة والخلفاء الراشدين وغير ذلك مما يجب على الوالدين أن يحرصوا عليه في تربية الأبناء والبنات، ليسيروا على صراط الله المستقيم، ويكون الأولاد ذرية صالحة في الدنيا، ويكونوا أجراً وثواباً في صحيفة الوالدين في الآخرة، ويمتد بهم العمل الصالح بعد الوفاة، ويتحقق فيهم الحديث الشريف: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له).

كما يجب على الوالدين أن يعاملا أولادهما بالعطف والرفق واللين والحزم والشدة عند اللزوم، ويتدرجا معهم كلما تقدّم بهم السن، ويجب على الوالد أن يُغير من طريقته في التعامل حسب العمر، وأن يَدْخل إلى نفوس أولاده عن طريق مكاشفتهم بأحوالهم الخاصة، ومتطلباتهم النفسية والجسدية والفكرية، وخاصة عند ظهور علامات البلوغ وأماراته، وأن يكون حليماً في كل ذلك لإقامة التوازن الكامل لهم في النواحي المختلفة، فلا يُفَرِّط

الطفل أو الشاب في جانب على حساب جانب آخر، فقد ورد في الأثر: "لاعِبْ ابنك سبعاً، وأدبه سبعاً، وصاحبه سبعاً، ثم اترك الحبل على غاربه" وكذلك الأم في علاقتها مع البنت، وخاصة عند النضج والبلوغ.

وهذه التربية تتوقف على الأصول التربوية التي يجب على الوالدين رعايتها، وتبدأ بالمحبة والصداقة، والصراحة والتفهم لأحوال الأولاد وشؤونهم وظروفهم الخاصة لمعالجتها بحكمة ثم بيان التوجيه السديد، والطريق السليم لها.

وأما اللجوء إلى القسوة والشدة والتهديد الذي يتسرب إلى نفوس كثير من الآباء فيصدرون الأوامر، كأنهم في معركة حربية في البيت فإنه يبوء بالفشل، ويفقد الأهل سلطان الإرشاد والتوجيه، والإقناع والوقار، وقد يتظاهر الأولاد أمام الآباء بالطاعة والركون والهدوء، ونفوسهم في غليان شديد، ينتظرون الفرصة للعبث، ثم التوجه إلى من يُفْضون إليه بمشاعرهم، ويجدون عنده الأذن الصاغية، واللسان الرقيق، ليقودهم إلى الهاوية أو إلى الطريق الوعرة.

ونقول: يجب وضع الخطة الرشيدة في التربية، لأنه لا يصح شرعاً الاكتفاء بكلمات عابرة، ونصائح شفوية، وأوامر مجردة، كقول الأب: "قم إلى الصلاة، اقرأ القرآن، اتق الله، راقب الله" فإن العدو الماكر قد خطط لهذه الأمة، وتآمر على دينها ومقدساتها، واتجه إلى اغتيال أبنائها وشبابها وفتياتها، ولا يزال مخططه بخبث لئيم، وخُطاً ثابتة، ودراسة محكمة، ووسائل متعددة، وأساليب دنيئة، ولا بد أن نواجه هذا التخريب بدقة وحنكة ودراية، فالحديد لا يَفلُّه إلاَّ الحديد.

التعريف بالحلال والحرام:

يجب على الآباء والأمهات أن يُعرِّفوا أولادهم بالحلال والحرام في جميع التصرفات، وأن يُنمّوا فيهم العقيدة السليمة، وأن يعلموهم العبادات، وأن يربوهم على محاسن الأخلاق، فيغرسون في نفوسهم الإيمان بالله تعالى، وحقه بالشكر، والمحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بمواقف المصطفى عليه الصلاة والسلام في مختلف جوانب الحياة، فتى وشاباً، ورجلاً وقائداً، وزوجاً وأباً، وداعية ومعلماً، وصديقاً وجاراً، وسياسياً ورجل دولة، وأن يعتزوا بالصحابة وتاريخ السلف وتراجم القادة والعلماء والخلفاء.

والطريق إلى ذلك يتم بالتعليم المباشر، والتعليق على مواقف لتاريخ، وضرب الأمثلة الحية، والقصص الإسلامية، والقراءة الواعية، وأن التزود بالثقافة الإسلامية ضروري جداً، ولكن المهم في الثقافة هو الجوانب الحية، والتطبيق العملي في الحياة، ليقوم في نفس الطفل صورة كاملة صحيحة عن الإسلام، تبدأ هذه الثقافة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لينشأ الشاب على حب الخير والفضيلة، ويتجنب الشر والرزيلة.

والشائع اليوم أن كثيراً من الآباء والأمهات يهملون أولادهم في هذه المرحلة الخطيرة، ويُوهمون أنفسهم أن الأطفال صغار، وأنهم لم يتفتحوا على الحياة، وأن التعاليم الدينية المبكرة – كالصلاة والحجاب – لا تجدي، ولا تجب، ويقدمون أدلة مضحكة بأن الطفل غير مكلف إلاَّ بعد البلوغ ... فإذا صلب العود، وبلغت الفتاة، وتكونت العقليات، وتسرب الفساد، وتشرب الأطفال العادات السيئة والأفكار البذيئة، وانحراف الشاب عن الصراط المستقيم، وتحدّث الفتاة حياء الإسلام، وحشمة الإيمان، وشعار الدين جاء الأب نفسه يدعو بالويل والثبور، وأنه لم يقدر على أولاده، وأنهم خرجوا عن طاعته وبره، وأن السفينة قد خرجت عن قيادته، ونسي بأنه قد تهاون بهم، فكان جزاؤه أن يستهينوا به في الدنيا، وما عند الله أكبر، وهكذا كثير من الأمهات.

وقد يحاول الآباء والأمهات أن يستخدموا حقهم في التربية بعد فوات الأوان، فيكون الفشل حليفهم، ويحاول الأب أن يستنجد بزوجته، أو العكس، ويستغيثون بالأقارب أو معلم الصف، أو مجير المدرسة، ولكن أنى ينفع الدواء بعد أن استحكم الداء، واستشرى الفساد، ولم يبقى إلاَّ البتر أو الاستئصال، وهيهات هيهات فلا يلومنّ إلاَّ نفسه، لأنه فرط في أول الأمر، فجنى الحصاد الرديء، والثمار الفج، ولم ينفعه مال جمعه، ولا متاع ادّخره، ولا أملاك حصل عليها، ولذا قيل: "من أدَّب ولده صغيراً، سُرَّ به كبيراً" والعكس بالعكس تماماً، وجاء في الأثر "الزموا أولادكم، وأحسنوا أدبهم"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عال جاريتين حتى يُدركا دخلت أنا وهو الجنةَ كهاتين) وفي حديث آخر: (ومن عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهنّ فله الجنة).

ممارسة العبادات:

يجب على الوالدين أن يُعوِّدوا أولادهم على ارتياد المساجد وأداء الصلاة في البيت والمدرسة، وأن يدربوهم على الصيام والإنفاق والتصدق والإحسان إلى الجار والفقير، وأن يعينوا العاجز، وأن يحترموا الكبار والمسنين، وأن يجعلوا أعمالهم في مرضاة الله، وأن يحبوا في الله، ويكرهوا في الله، وأن يضحوا بمالهم وأنفسهم في سبيل الله، وغير ذلك من الفرائض الدينية، والآداب الإسلامية، وخاصة الحجاب للبنت مثلاً، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مُروا أولادَكم بالصلاةِ وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع)، قال العلماء: وهكذا في الصوم وغيره، ليكون ذلك تمريناً لهم على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر، والحكمة من النص على الصلاة أنها عماد

الدين وقوام الحياة، والصلة الوثيقة بين الإنسان وربه، لتكون تذكيراً لصاحبها بكل الأحكام الشرعية في أوقاتها المختلفة.

والوسيلة التربوية لذلك أن يصحب الوالد أبناءه معه إلى المسجد، وأن يشاركهم في تنفيذ الأحكام الشرعية في البيت والعمل، وأن يكلفهم بها، وأن يطلب من أحدهم مثلاً مساعدة عاجز أو إعطاء الصدقة لفقير، ثم يبين لهم حكمة الإسلام من ذلك، وأن يحبب له الطاعات والعبادات، ويرغِّبهم بأجرها وثوابها وجزائها، وأن يحذِّرهم من المحرمات والفساد والانحراف، ويرهبهم منها ويشرح لهم مضارها وآثارها وعقابها، وأن يرشدهم إلى الحكمة والغاية، وأن ينير أمامهم الطريق، وأن يجالسهم في أوقات متعددة، دون أن يكتفي بإصدار الأوامر، أو مجرد السؤال عن أداء الصلاة مثلاً، وأن يثابر على الموعظة، ويلجأ إلى الترغيب والترهيب على منهج القرآن والحديث الشريف، وأن يستمر في التذكير اليومي، لقوله تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا). [طه: 132].

فالقرآن الكريم لم يكتف بمجرد أمر الأولاد والأهل بالصلاة، بل قرن ذلك بالمواظبة والصبر والمصابرة، والمتابعة والمراقبة لتحقيق الهدف المنشود.

إقامة الصّلات الاجتماعية القويمة:

ومن عناصر التربية الإسلامية أن يقوم الوالدان بتوجيه الولد إلى اختيار الصديق الصالح، والزميل المؤمن، وإلاَّ اختار لنفسه ما شاء، والصديق يؤثر على صديقه تأثيراً كبيراً في الإصلاح والإفساد، والمرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل، والصاحب ساحب، وخاصة بعد العاشرة من العمر، لأن الطفل يتلقى في المرحلة الأولى كل شي من والديه، فإن ترعرع، وخرج من البيت، واختلط بالناس في المدرسة والطريق والملعب والحديقة، فتش عمن يلاعبه ويجالسه ويرافقه، هنا يظهر أثر الأب غير المباشر في التوجيه نحو اختيار الأصدقاء والزملاء، وإبعاده عن قرناء السوء، ويتوقف نجاحه على حكمته ودرايته، أما إذا فقد الوالد زمام المركب، واتجه الشراع إلى غير ما يُحب، بأن يكون بعيداً عن بيته، مفرطاً في أمره متهاوناً في تربيته، سيئاً في معاملته مع أولاده، فلا يبقى له أثر ما في التوجيه، ويتولى رفاق السوء، وأصدقاء الطريق سحب الأولاد، والتأثير عليهم على النحو الذي يبغون.

والوسيلة التربوية إلى توجيه الأولاد لاختيار الصديق الصالح أن يصحب الوالدان أولادهما في زياراتهم، ليتعارف الأولاد على أترابهم عند أصدقاء الأب وزملائه المؤمنين الصالحين، ليقيموا معهم، وبأنفسهم، جسور الصداقة والتعاون والمحبة وتبادل الكتب والمجلات والأفكار والآراء، ويشرف الوالد

على التوجيه غير المباشر، فإن تمت العلاقة بين الأولاد توارى الآباء عن المسرح، وهنا يسمع الطفل الخير كل الخير، ويبصر بقلبه وعقله وشعوره تطبيق الخير في المجتمع الذي يُزرع فيه الخير والفضيلة، ثم يفعل الآباء مثل ذلك مع الجيران الصالحين والأقارب الطيبين، وذوي الرحم الملتزمين بالإسلام، ويتابع الآباء وظيفتهم بأن يرشدوا أبناءهم إلى الأندية الرياضية التي تطبق أحكام الشرع، وإلى حضور الدروس المفيدة، والكتب النافعة، والبرامج الإسلامية، والندوات الفكرية، واقتناء المجلات الهادفة والقصص والروايات البناءة، وعلى العكس من ذلك فعلى الآباء أن يقطعوا كل آصرة لا ترضي الله، ولو كانت مع قريب فاسد، أو جار منحرف، أو زميل متهاون، أو مجلة مأجورة، أو كتب هدامة، وذلك عن طريق الإقناع والتوعية والمناقشة والحوار، وليس بالقسوة والإجبار، أو الصراخ والتهديد، وهذا ما أكده الرسول الكريم فقال: (مثلُ الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخِ الكير..)، فالجليس الصالح يقول الخير ويفعله، ويرشد إليه ويدعو له، والجليس السوء يحمل الشر ويعمل به، ويفعل المنكر ويدعو إليه.

أما ما يفعله المسلمون اليوم من اصطحاب أولادهم إلى أماكن اللهو والفجور والأفلام الجنسية، والسهرات المختلطة، والأماكن الموبوءة والمدارس التبشيرية والأندية الإلحادية، فإنه حرام قطعاً، ويتحملون مسؤوليته الجسيمة أمام الله تعالى في الدنيا والآخرة، لأنهم يقدمون أولادهم هدية للشيطان، ويعرفونهم على منافذ الفساد وطريق الشر، ويغمسونهم في الرذيلة والفحشاء، ثم يطلبون منهم بعد ذلك الفضيلة والصلاح؟!!

تحفيظ القرآن الكريم:

ومن منهج الإسلام في التربية تحفيظ القرآن الكريم للأطفال من الصغر، لأنه يُقَوّم السلوك والخلق، ويحفظ اللسان، ويثبت العقيدة، ويضمن المستقبل للشاب، يقول الرسول الكريم: (أدِّبوا أولادكم على ثلاث خصال: حبّ نبيكم، محبّ أهل بيته، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلاَّ ظله، مع أنبيائه وأصفيائه) ويقول عليه الصلاة والسلام: (خيرُكم من تعلم القرآن وعلمه)، والأحاديث في ذلك كثيرة، والآثار الطيبة، والمنافع الجمة لا تخفى على مسلم.

ويتوقف النجاح في هذا المضمار على توجيه الآباء أولاً، وعلى اختيار الموجه للأولاد ثانياً، وذلك بانتقاء المربين لهم، وهذا ما بالغ به السلف الصالح، والخلفاء الأوائل، فكانوا يتخيرون المؤدبين والمربين

والمعلمين الأفاضل الذين يثقون بدينهم وأخلاقهم وسلوكهم، ويعهدون إليهم بتربية أولادهم، ويرسمون لهم الخطوط العريضة في التربية.

ويمكن أن يعتمد الآباء والمربون في هذا الخصوص على مبدأ الثواب والعقاب، أو الترغيب والترهيب، على أن يكون الثواب والترغيب والمدح جهراً وعلناً أمام الناس، لتشجيع الولد، وإضفاء الصفة الحميدة عليه، وتلبية النوازع النفسية عنده، كحب الظهور، واستقلال الشخصية، وتحقق الذات، والسعي على نشر الفضيلة المجاز عليها، وخاصة في مرحلتي الطفولة والشباب، أما العقاب والتهديد والترهيب فيكون سراً وخفية، مع التوجيه الكافي، وبيان سبب العقاب، وتحقيق النصح والإرشاد، وتجنب التشهير وإفشاء المنكرات والمساوئ، ويجب على الآباء والمربين أن يتغافلوا عمداً عن بعض الهفوات الصغيرة والأخطاء الطارئة، والذنوب العارضة، لأن الإنسان، كل إنسان، خطّاء، وغير معصوم، وأنه ليس آلة صماء يعمل بانتظام، ولأن الإنسان، كل إنسان، حتى الطفل الصغير، يملك جهازاً رقابياً ذاتياً وداخلياً، يحاسب به نفسه، ويزن به أعماله، يتراجع في الغالب ذاتياً وتلقائياً عن هفواته، ويؤنب نفسه على تصرفاته، ويندم على أفعاله السيئة، فيجب أن يُترك له هذه الفرصة في الصغائر، ويكون قد كفى والده مُؤْنة التربية والعقاب بالتغاضي عنه، كما يجب أن يكون العقاب – إن وجد – مجزياً وخفيفاً متناسباً مع سببه، وأن لا يكثر الوالد منه، حتى لا يتعوَّد الطفل عليه، ويهون على نفسه الملام وسمع التأنيب، وألا ينحصر العقاب بالضرب، بل يجب أن يكون الضرب آخر المطاف، وفي أقل الحدود وأخفها.

ومن الخطأ الشائع أن يُكتفى بحفظ بعض الآيات أو قراءة بعض الكتب بشكل إجباري، دون أن يدرك الأولاد المضمون والهدف الذي يشوقهم بالحفظ، ويعلقهم بالكتاب الكريم، والاستفادة من آياته ومعانيه وحكمه وأحكامه.

التسوية بين الأولاد:

ويجب على الوالدين التسوية بين الأولاد في الرعاية والمحبة، والاهتمام والهدايا، وأن لا يُخصص الوالدان أحد الأولاد على الآخر بالعاطفة أو الهدية أو التقبيل، مادياً ومعنوياً، بل يجب المساواة حتى في القبلات على وجنات الصغار، لما رواه الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اعدِلُوا بين أولادكم في العطايا، كما تُحبُّون أن يعدلوا بينكم في البر) وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه أن لأباه أعطاه عطية، ولم يعط بقية إخوته، وأراد أن يشهد على تصرفه رسول الله صلى الله عليه السلام،

فسأله رسول الله عليه الصلاة والسلام: (هل أعطيت أولادك مثل هذا؟)، قال: لا، فقال عليه الصلاة والسلام: (فاتقوا الله واعدلوا في أولادكم)، وفي رواية أخرى قال: (لا تشهدني على جَوْر، وإن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم)، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم الصحابة والمسلمين جميعاً مبدأ تربوياً عظيماً، يترك أعظم الآثار على نفسية الأولاد.

أما تفضيل أحد الأولاد، وتخصيصه بمال أو بميراث أو عطية أو رعاية فإنه من أمراض الجاهلية التي عادت أدراجها إلى المسلمين، لتفتت في العضد، وتمزق الشمل، وتقطع الأرحام، وتخلق الحقد والبغضاء والضغينة والعداوة بين أفراد الأسرة الواحدة.

القدوة الحسنة:

ومن أهم عناصر منهج الإسلام في تربية الأولاد أن يكون الوالدان قدوة حسنة في التربية، لأن التقليد وسيلة تربوية ناجحة عند الصغار والكبار، وخاصة في الصغر، ومع الوالدين، فالطفل يبدأ أولاً بتقليد والديه، ومن يُحيط به في صغره، ويحاول محاكاتهم في كل صغيرة وكبيرة، ويتخذ مسلكه في الحياة بتقليد من يُحب فيما يصدر عنه من تصرفات وعادات وصفات، ويتقمص شخصية من يستحوذ على فكره وشعوره، ويظهر التقليد جلياً واضحاً عند الأطفال في العبادة والأخلاق والسلوك، وفي هذا يقول الرسول الكريم: (كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه).

والقدوة الحسنة يجب أن يتحلى بالفكر والسلوك معاً، فلا يكفي أن يملك الأب ثقافة إسلامية جيدة، ليوجه الطفل إليها، ويطلب منه التطبيق والتنفيذ، بينما يفرط الأب نفسه في التطبيق، ويفقد الالتزام، فيكون عمله مكذباً لقوله، وسلوكه مناقضاً كلامه، كما لا يكفي السلوك الإسلامي القائم على التقليد، مع الجهل بمبادئ الإسلام وأهدافه وحكمته، بأن يقوم الآباء أحياناً بالصلاة والصدقة والإحسان، والتعصب الديني، ويفرضون على أولادهم الإتباع، فإن سأل الطفل أباه عن حكم أو حِكْمة أو عرض عليه شبهة، أو فهماً منحرفاً، أو خطر للطفل خاطر يريد تفسيره، كان الأب أصم وأبكم، لا يدري من أمره شيئاً، وقد يفقد الوعي والإدراك من أسئلة ابنه، فيلجأ إلى القسر والكبت، ثم إلى التهمة والشك، وقد يصل إلى الضرب واللطم، ولا يستطيع أن يواجه أولاده بالحقيقة الناصعة، لأن فاقد الشيء لا يعطيه لذلك لا بد من القدوة الحسنة في الفكر والسلوك معاً، ليوضح المربي لأولاده عظمة هذا الدين، وفلسفته في الكون والحياة والإنسان، وأثره في إصلاح الفرد والمجتمع، وحاجة الناس إليه، ثم يرى أثر هذا الفكر على السلوك وعند التطبيق.

وإن تعذر على الأب هذا الوصف فيجب أن يسلم أولاده إلى الأيدي الأمينة، والمربي الواعي، والموجه الحكيم، كما يفعل تماماً في الصنعة والحرفة والتعلم.

ومن جهة ثانية فإن جميع العناصر السابقة تبقى حبراً على ورق وكلاماً نظرياً على السطور والألسنة، إذا لم تتجسد بصورة واقعية في حياة الطفل، فيجب على الأب أن يكون قدوة في رسم الصورة الواقعية للإسلام، كما أن العناصر السابقة في منهج الإسلام في تربية الأولاد تفقد حيويتها وقوتها وفعاليتها – مهما كان المربي قوي الشخصية – إذا خالفت أقواله أفعاله، وكان متناقضاً بين كلامه وأعماله، كأن يأمر أولاده بالصلاة، وهو لا يصلي، أو ينهى عن الكذب، وهو يحترفه في حياته ومعاملاته وتصرفاته، وأن يمنع ولده مثلاً عن شرب الدخان، وهو يدمن عليه.

الاعتماد على الله تعالى:

وآخر هذه العناصر، بل أهم هذه العناصر في منهج الإسلام في تربية الأولاد، هو الاعتماد على الله تعالى في كل خطوة من العناصر السابقة، فيتوجه إلى الله تعالى في كل مرحلة، ويسأله التوفيق، ويتوكل عليه في حفظ الذرية الطيبة، ويستعين به في إصلاح الأولاد، ويلتجئ إليه بالدعاء لتحقيق مقصده فيما يعمله، وما يخططه لتربية أولاده، وقد ذكر القرآن الكريم قصصاً كثيرة عن الأنبياء والصالحين الذين توجهوا إلى الله تعالى، واعتمدوا عليه في تربية أولادهم، وهذه القصص إرشاد وتعليم للمسلم، قال تعالى على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) [إبراهيم: 40].

وقال تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) [البقرة: 128].

وقال تعالى على لسان المسلم المؤمن: (وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي) [الأحقاف: 15].

وهذه من وصايا القرآن الكريم التي ينعت بها الإنسان العاقل الرشيد الذي بلغ أشدَّه، فيذكر بأبويه، ويربط ذلك بحب البقاء والاستمرار في طلب الذرية الصالحة، فيقول تعالى في أول الآية: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [الأحقاف: 15].

ثم وصف القرآن الكريم عباد الرحمن بعدة صفات، منها التوجه إلى الله تعالى بطلب الذرية الصالحة، فقال تعالى: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً) [الفرقان: 74].

فإن نفذ المسلم هذا المنهج في تربية أولاده، متعمداً على الله فيه، ثم ساء الولد وفسد، فتلك مشيئة الله وإرادته، فعلينا العمل، وعلى الله النتائج، وعلينا الكسب، وعلى الله الاتكال، ولله في خلقه شؤون، وقد بذل سيدنا نوح أقصى ما يستطيع لهداية ابنه فأبى، حتى أصابه الغرق، وكان من الهالكين.

وإن هذا المنهج الرباني في تربية الأولاد آتى ثماره اليانعة، وسار عليه المسلمون والمسلمات عبر التاريخ، فقدَّموا للأمة الأجيال الصاعدة، والأولاد البررة، والذرية المؤمنة الصالحة، والشباب المتحفز الناهض لرعاية شؤون دينه وأمته، كما أنتج الفتيات الفُضْليات لحمل راية التربية، وقدّم الآباء والأمهات فلذات أكبادهم، ليكونوا منارات الهدى، ومصابيح الضياء للعالم أجمع.

وصفحات التاريخ مليئة بالأمثلة، وهي أكثر من أن تحصى، فالصحابة الكرام أنجبوا التابعين الصالحين، والتابعون أقاموا أبناءهم على منهج الله، فكانوا قادة الفتوح والدعوة الإسلامية إلى أنحاء المعمورة.

وهذا المنهج هو الذي سارت عليه فاطمة الزهراء في تربية الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، وهو ما طبقته الخنساء عندما ألقت بأبنائها الأربعة إلى ساحات الشهادة والخلود، وهو الذي سارت عليه أسماء في تربية عبد الله بن الزبير العالم الداعية، المجاهد البطل التقي الورع، حمامة المسجد في العبادة، وهذا هو المنهج الذي تربى عليه الإمام الشافعي وأحمد وربيعة وابن حزم وصلاح الدين، وغيرهم من أعلام الأمة في العلوم والقيادة، والعبادة والسلوك وهو ما ردَّده الشاعر العربي:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عوّده أبوه

وهو ما يفيده المثل العربي "يشيب المرء على ما شب عليه".

هذا المنهج هو ما قصدنا بيانه وشرحه باختصار، وهو ما نطالب بالالتزام به وتطبيقه وتنفيذه، في البيت والأسرة، وهو ما نأمل به أن نعيد الحياة الكريمة لهذه الأمة لتزيل عن كواهلها عبء الذل والاستعمار والتبعية والذيلية والضياع، يقول الله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [الأنعام: 153].

وهذا المنهج هو الأساس الذي تقوم عليه التربية السليمة، والبذرة التي توضع في التربة، والغرسة التي نقيمها في الأرض، لتأتي المدرسة ثم المجتمع للسير على طريقه، وإكمال البناء، ورعاية الغراس، وسقي البذور والنبات، فتتحقق النتائج، ويعتبر الآباء والأمهات قد أدوا الأمانة التي تحملوها، وحفظوا الوديعة التي وضعت عندهم، ثم سلموها إلى يد جديدة لمتابعة الطريق، والاستمرار في الإعداد والتربية، وهي المدرسة والمجتمع.

مسؤولية المجتمع عن التربية:

يعتبر المجتمع عاملاً هاماً في التربية، ويمثل البيئة الواسعة التي تتمثل فيها العقيدة والأخلاق والقيم والمبادئ، فالإنسان اجتماعي بطبعه، فيؤثر في غيره، ويتأثر من غيره، ومع أن تأثير المجتمع غير مباشر، فإنه مؤثر ونافذ، ويعتمد على الإيحاء وفرض العوامل النفسية على الفرد ليتكيف مع المجتمع، دون أن يقف حائلاً وسداً منيعاً أمام تياره الجارف.

وازدادت أهمية المجتمع في التربية، واتسع تأثيره في الأفراد بسبب التطور الحضاري الحديث، والاختراعات التقنية المستورة، وكاد أن يتبوأ المكانة الأولى في التوجيه والتربية.

ومن هنا بين لنا الإسلام أهمية المجتمع، وأناط بتقديره بعض القيم والموازين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (البِرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثم ما حاك في صَدْرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس).

وتغطي وظيفة المجتمع التربوية مجالات واسعة وعريضة ومتعددة، وتشمل أقل الأمور في الحياة وأعظم الدوائر والمؤسسات، فتظهر في العادات والتقاليد، وفي الأفكار والأحاديث، وفي الثقافة العامة، والتوجيه المعنوي، والأحاديث الخاصة والعامة، وفي الكتب والمجلات والقصص، وفي أجهزة الإعلام من الصحافة والإذاعة والتلفاز، وفي الندوات والمحاضرات، وفي الأغاني والأهازيج والأشعار، وفي أجهزة الرقابة والتفتيش، وفي مراعاة الأنظمة وتطبيقها.

وقد يكون تأثير المجتمع سلباً، أو منحرفاً، أو موجهاً توجيهاً معيناً، وقد تتعارض بسببه جهات التربية، فيبني البيت مثلاً، ويهدم المجتمع، ويربي الآباء والأمهات، ثم يفاجئ الأطفال بالواقع المر والنقد اللاذع لتمسكهم بالفضائل والقيم، ويتحقق الانفصال بين الأسرة والحياة العامة، ويقع الأطفال في انفصام الشخصية، وازدواج التوجيه، وقد يغلب الانحراف والاتجاه الجماعي الفاسد على الأفراد، ويفرض عليهم الاعوجاج من المجتمع الذي يستظلون به، لذلك أقامت الشريعة الغراء مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على نطاق الفرد والجماعة، وعلى المستوى الخاص والعام، لضمان

التوجيه السديد والرشد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته) وقال عليه الصلاة والسلام: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) ووصف القرآن الكريم الأمة بالخير بسبب ذلك، فقال تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّه) [آل عمران: 110]

وأمر القرآن الكريم القيام بهذا الواجب المقدس، فقال تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [آل عمران: 104].

وهدد القرآن الكريم المجتمع الذي يرضى بالمنكرات والظلم والطغيان، وأن الإثم والدمار يعمُّ الجميع، وأن البلاء ينذر الأمة، فقال تعالى: (وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً) [الأنفال: 25].

وقال تعالى: (وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ) [هود: 113].

وحذّر القرآن الكريم من خطر انتشار المنكرات والسكوت عنه، وغلبة أتباعه، كما حذّر من التقصير عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مكان، وبين تعالى أن ذلك يستوجب اللعن والطرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ. كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) [المائدة: 78 – 79].

وصور الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الترابط بين أفراد المجتمع، والتأثر المتبادل بينهم، ووجوب الأخذ على يد الظالم والمنحرف والمسيء لإنقاذ المجتمع، فقال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلَ القائمِ في حدودِ اللهِ، والواقعِ فيها، كمثلِ قومٍ اسْتَهموا على سفينةٍ، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا ما استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً، ولم نُؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونجَوا جميعاً).

وحدد القرآن الكريم وظيفة المجتمع المسلم في التربية، وأنه يدعو لكل خير، وينهى عن كل شر ومنكر، فقال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [التوبة: 71].

فالمؤمن مرآة أخيه المؤمن، يتأثر به، ويتعاون معه على البر والتقوى، ويذكره إذا نسي، ويرشده إذا ضل، وينصحه إذا أساء ويصحح له إذا أخطأ، ويقومه إذا أعوج، ويساعده على نوائب الدهر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انصُرْ أخاك ظالماً أو مَظْلوماً) قيل كيف أنصرُه ظالماً ؟ قال: (تحجُزُه عن الظلم فإن ذلك نصرُه) وفي رواية (إن كان ظالماً فاردده عن ظلمه وإن يك مظلوماً فانصره).

كما أن المسلم قوي بأخيه، لذلك أمر الإسلام بالهجرة من دار الكفر والشرك إلى دار الإيمان والإسلام، وطلب من المسلمين مصاحبة الأخيار، فقال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) [الكهف: 28].

وبيّن الرسول الكريم أثر مصاحبة الأخيار أو مخالطة الأشرار، فقال عليه الصلاة والسلام: (مَثَل الجليسِ الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحاملِ المسك إما أن تشتريَ منه، وإما أن يحذيَك، وأما أن تجدَ منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابَك أو تجدَ منه ريحاً خبيثة). وهذا يدل على أن الواجب على الإنسان أن يتحرى مصاحبة الأخيار ومجالستهم، لأنها تحمل الشرير ليكون خَيّراً، أو تمنعه على الأقل من شره، وتحدّ من فساده ونشاطه، كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الصالح شريراً، أو تضعف نشاطه وتحول بينه وبين الخير والمعروف.

قال الحكماء: من صحب خيراً أصاب بركته، وجليس أولياء الله لا يشقى، وأوصى الحكماء الأحداث بالبعد عن مجالسة السفهاء، قال علي كرم الله وجهه: "لا تصحب الفاجر، فإنه يزين لك فعله، ويودّ لو أنك مثله" وقالوا: إياك ومجالسة الأشرار، فإن طبعك يسرق منهم، وأنت لا تدري، ولا يشترط الفساد بالقول والفعل، فالإنسان قد يتأثر بمجرد النظر إلى غيره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقال الشاعر:

بعشرتك الكرامَ تُعَدُّ منهم فلا تُرِيَنْ لغيرهم ألوفا

وقال آخر:

ألِفتُ أكابراً وازددتُ علماً كذا من عاشر العلماء يُكرم

وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلاّ انتشر الفساد، واختل المجتمع، فعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي

بيده لتأمرُنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم).

ومن هنا يسعى الإسلام لإقامة المجتمع الفاضل الذي يقوم على أساس من التقوى وتطبيق أحكام الله، وتنفيذ شرعه، والالتزام بالمباحات، والابتعاد عن المحرمات، ويتمثل فيه دين الله تطبيقاً وسلوكاً، فتنبع منه الفضائل، وتزدهر فيه الأخلاق، ويعلو فيه الحق، ويخرس الشر والباطل، ويخنس الشيطان وأعوانه، وينعكس ذلك على أفراد المجتمع عامة، والأطفال والشباب والجيل الصاعد خاصة، فلا يبقى مجال للفساد وسوء الأخلاق، وتتجه الأفكار والعقول نحو البناء والإعمار، وتتوارث فيه الأجيال القوة والازدهار والفضيلة في المجالس العامة والخاصة، وفي نقل الثقافة البناءة، والأفكار الهادفة، عن طريق وسائل الإعلام والتوجيه، وأجهزة الدعاية والتعليم.

ونظراً لأهمية المجتمع في التربية والتوجيه فقد جعل الإسلام المسجد مدرسة للتعليم من جهة، ومصدر إشعاع وتوجيه من جهة ثانية، وتتمثل فيه أنشطة الحياة المختلفة من جهة ثالثة، فيقصده الناس يومياً مرات متعددة، ويُرى فيه الناشئة والشباب البالغون والراشدون، والدعاة والموجهون، والعلماء والمعلمون، وقد اجتمعوا على مرضاة الله تعالى، فينمو في نفوسهم الشعور بالولاء للأمة والمجتمع، ويرشفون من معين أخلاقهم وسلوكهم، ويحاكونهم في أعمالهم وتصرفاتهم، ويقتدون بهم في طاعتهم وعبادتهم، ويتبادلون معهم الكلام الطيب، والنصح البالغ والإرشاد السليم، بالإضافة إلى استماع الدروس والخطب والمواعظ، وتلاوة القرآن الكريم ودراسة الحديث الشريف، وغير ذلك.

كما أمر الإسلام بوجوب التعاون بين أفراد المجتمع على الخير والبر، والإعراض عن الفساد والمفسدين، فقال تعالى: (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) [المائدة: 2].

كما شرع الدين الحكيم النصرة والموالاة في جوانب متعددة من الحياة، ومنها المسؤولية المالية الجماعية على العاقلة في الدِّية وغيرها.

وبيّن الرسول الكريم إحدى صفات الصحابة التي تميزهم من غيرهم أنهم يرون على الخير أعواناً وأنصاراً، فيدفعهم ذلك إلى الإقبال والحماس، والتضحية في سبيل الخير، والنفع العام.

وباختصار يجب أن تكون المؤسسات العامة، وأجهزة الإعلام، ووسائل التربية والدعاية والتوجيه، ملتزمة بالآداب الإسلامية، ومصدر إشعاع للقيم الدينية، وأن تمتنع عن نشر الفساد والرذائل، والمنكرات والفواحش بجميع أنواعها ووسائلها ومفاتنها وشرورها والطرق الموصلة إليها، وأن يكون

المجتمع ممثلاً للسياج الرصين الذي يحيط بالناس ليحفظ مصادر الخير، ومنابع الفضيلة، ويمنع عنهم رياح الانحراف، وتيارات المضار، وأن يكون المجتمع مظلة واقية داخلياً وخارجياً.

المصدر:

كتاب الإسلام والشباب للدكتور محمد الزحيلي